مجلة الرائد

العدد : ٢٣١ الموافق في شعبان ١٤٢٢ هجري ٢٠٠١/١١ ميلادي

عنوان المقال : بين حقائق الكون والنفس .. والاستماع المسؤول	الكاتب :الأستاذ ماجد رسلان

ما أسعد المؤمن وما أحيلى حياته حين يُلقي السمْعَ والبصر والفؤاد لأبي القاسم الوالد المعلم ﷺ .. وهو يهديه إلى الصُّوى ويُسدد له الخُطا ، ويوفر عليه جهدَ المعاناة المُمضّة وإصرَّ المشقة المضْنية في إدراك حقائق الحياة للتعامل معها ، وفهم مراميها ، وحقائق الوجود الذي يعيش فيه ، وفهم حقائق نفسه القاطنة بين جنبيه ليسلس له قيادها في بقية عمره حيث ستغادره في أجل محتوم ووقت معلوم ، عائدةً إلى بارئها موقرة بما حملت إنْ خيراً فخير وإن شراً فشر !! .

فحين تلتقي جميعاً هذه الحقائق التي يحيا من أجلها ، في نفسه المتبتلة العابدة يسهل الصعب عليها ، وتتعبَّد أمامها السبل وتتوضح على طريقها المعالم ، وتقوم بأداء مهامها العبادية التي افتُرضت عليها في حياتها الدنيا باقتدار ، دون أن تتدعثر وتكبو ، أو تتعثر وتخبو ..

هذه الدنيا التي خلقنا الله عليها وجعلنا مستخلفين فيها لإقامة الحق بميزان القسط ولإعمارها بأساس العدل محققين في أنفسنا قوله تعالى:{ **وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إلا لِيَعْبُدُونِ** } [الذاريات : ٥٦].

فحين يحقق المؤمن مفهوم العبادة الشاملة الجامعة على كل صعيد فإنه يتبوأ بجدارة المنزلة السامية مع الملأ الأعلى الذين : { ... **لا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ** } [التحريم : ٦] في جنة : { ... **عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** } [آل عمران : ١٣٣] .

هذه الدنيا التي لم ولن تبلغَ هباءةً وزناً إذا قيست بجِرم واحد من بعض أجرام الكون المبثوثة فيه ، كيف ينبغي أن يُقبل عليها العبد بإيجابية سديدة ، حيث ما سُخرت إلا له مع ما سُخر من هذا الكون الشاسع المأهول المأنوس ؟ وكيف ينبغي أن يكون التعامل معها بفهم أريب وحساب دقيق ، وميزان رهيف .

مجلة المرابط

العدد : ٢٣١ الموافق في شعبان ١٤٢٢ هجري ٢٠٠١/١١ ميلادي

عنوان المقال : بين حقائق الكون والنفس .. والاستماع المسؤول	الكاتب :الأستاذ ماجد رسلان

لقد صَوَّرَ لنا الرسول ﷺ الدنيا على حقيقتها وأبَانَ لنا بقية ما فيها ، وبقية ماهيتها حيث بلغت من الكِبَر عتيّاً . فلنستمع إليه بجد ومسؤولية وهو يقول : (**إنَّ الله تَعَالَى جَعَلَ الدُنْيا كُلَّها قليلاً ، وَمَا بَقِيَ مِنْها إلا القَلِيل مِنَ القَلِيل ، ومَثَلُ ما بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا كَالثَّغْبِ شُرِبَ صَفْوُهُ وَبَقِيَ كَدَرُهُ**) سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٦٢٥/٤) . الثغب : الجدول الصغير من الماء .

هذه حقيقة كونية هائلة يقتضي أن تكون واضحة جلية في النفس المؤمنة ، لتمتلك إزاءها رؤية متوازنة متكاملة عن هذه الدنيا ، وجهداً متناسباً عن كيفية التعامل معها والتفاعل من خلالها بصورة تجعل العبد المُستخلف هو الفاعل بها ، والمدبر لأمرها ، والمصلح لشؤونها ، والعامل على تنميتها ، والقائم بتعميرها ، والساعي لبنائها بشكل متناسب مع ما بقي من حياتها وحياته ، وبقائها وبقائه !! .

كذلك لخَّص ﷺ بإيجاز حقيقة النفس البشرية وهي تتقلب بين مَدٍّ وجذر ، وإقبالٍ وإدبارٍ في دنيا دارت عليها دورات زمنية كثيرة وكثيرة .. حتى آلت إلى هذه الشيخوخة وقربت من انتهاء ليس ببعيد . يقول المبعوث رحمة للعالمين :

(**بُعِثْتُ أنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ**) صحيح الجامع الصغير : ٢٨٢٩/١ ، وفي رواية أخرى : (**بُعِثْتُ فِي نَسَمِ السَّاعَةِ**) صحيح الجامع الصغير : ٢٨٣٢/١ .

هذه النفس يعتريها الكثير من النقص والكثير من الضعف والكثير من التخلف والكثير من التغيير .. وصاحبها ينبغي أن يكون على مقتضى الاستخلاف قوّاماً رشيداً ، صالحاً مصلحاً ، مطاعاً سيداً ..

فلنستمع أيضاً من فم النبوة الصادق المصدَّق ، والطاهر المطهَّر عن هذه النفس التي ألهمها ربها فجورها وتقواها ..(**لا يَزَالُ قَلْبُ الْكَبِيرِ شَابًّا فِي اثْنَتَيْنِ : فِي حُبِّ الدُّنْيَا وَطُولِ الأمَلِ**) الشيخان عن أبي هريرة ،(**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ**) الشيخان عن أنس.

مجلة المرابط

العدد : ٢٣١ الموافق في شعبان ١٤٢٢ هجري ٢٠٠١/١١ ميلادي

عنوان المقال : بين حقائق الكون والنفس .. والاستماع المسؤول	الكاتب :الأستاذ ماجد رسلان

حين ينظر المؤمن إلى هذه الحقيقة النفسية الخطيرة والمتغلغلة في أعماقه والمتمكنة من مشاعره والغائرة في أحاسيسه ، هذه الحقيقة الصادرة من تعاليم النبوة وأفقها الوضيء . لا بد أن يُسلِّمَ بها المؤمن وأنها من البدهيات والمُسلَّمات ، وبخاصة حين يدلف على عتبة الشيخوخة وأرذل العمر ، فينبغي والحالة هذه الاستمرار بمعالجة هذه النفس القُلّب على طول المدى ، والتي إذا ما تُركت وشأنها دون ضوابط من رعاية ، ودون ترويض من تهذيب ، ودون تربية من تدريب .. فإنها تَحْرُن عن عملها وتكبو في سيرها وتتخلف عن طريق الآخرة ، وتخلد إلى الفُتات من حطام هذه الدنيا القليل القليل ، هذه الدنيا الزائفة الزائغة ، الشائبة الشائهة .. تخلد إليها وكأنها غدت الغاية المأمولة ، والهدف النهائي تماماً كما تسترخي بعض الأنعام الغافلة في الحقل الأخضر إلى زرعها وبرسيمها وهي ترتع منه بنَهَم مفرط ، وما درت أن حتفها في مرعاها ، وأن هلاكها فيما تنفش فيه بغير ضابط من حساب ، فتحسبه نعيمها وحياة وجودها ، كما جاء في الحديث عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال :

(**إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا . فَقَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَوَ يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ . فَسَكَتَ حَتَى ظَنَنَّا أَنَّهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ ، قَالَ : فَمَسَحَ عَنْهُ الرُّحَضَاءَ ، وَقَالَ : أَيْنَ السَّائِلَ ؟ وَكَأَنَّهُ حَمِدَهُ - فَقَالَ : إِنَّهُ لا يَأْتِي الْخَيْرُ بِالشَّرِّ ، وَإِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعُ يَقْتُلُ حَبَطاً أَوْ يُلِمُّ ، إلا آكِلَةَ الْخَضِرِ أَكَلَتْ حَتَّى امْتَلأَتْ خَاصِرَتَاهَا ، اسْتَقْبَلَتْ عَيْنَ الشَّمْسِ فَثَلَطَتْ وَبَالَتْ ، ثُمَّ عَادَتْ فَأَكَلَتْ ، وَإِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِحَقِّهِ وَوَضَعَهُ فِي حَقِّهِ فَنِعْمَ الْمَعُونَةُ هُوَ ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِغَيْرِ حَقِّهِ كَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ وَيَكُونُ شَهِيدًا عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**) [1] متفق عليه .

فبعض الأنعام تدرك نفسها فتثلط وتبول ، وبعضها تأكل حتى تنفجر وتهلك .

هذه الدنيا التي لم يبق من نعيمها إلا كَدرُها ولم يبق من زخرفها إلا حموؤها ، وهذه النفس التي كلما أوغلت في المسير وغَدَّ بها قطار العمر مزيداً من المسافات ، وقربت من أرذل العمر ازدادت حباً لهذه الدنيا واستكانت بحمق لها ، وخضعت عشقاً فجّاً كَلَفاً بها ، وشبَّ معها الأمل الخادع للتعلق بها وببهارجها وزخارفها وهي تظن أنها قادرة على امتلاكها من ألفها إلى يائها ، فإذا بلحظة الموت تفجؤها وتقتحم

عليها أبواب أسوارها على غير ميعاد ، فما تجد أمام ناظريها إلا السرابَ من بعيد ، وإلا قبضَ الريح من قريب !

لكنها إنْ أدركت حقيقة حياة وجودها الكوني ، وحقيقة وجود الكون الحياتي ، وأدركت حركتها الربانية المؤثرة فيه ، فإنها تكون قد اهتدت إلى السبيل الأقوم ، والسلوك الأرشد ، لتحقيق سنن وجودها في عمارة الأرض بالحق والعدل ، وإقامة حياة زاهية بالعلم والعمل ، متألقة بالمعرفة ناطقة بالخير ، ساعية بالإصلاح ، داعية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. وإذا ما عرفت النفس ذاتها حق المعرفة تكون قد عرفت على التَوِّ ربها وباريها الذي أنشأها من عدم ، وجَمَّل صورة خلقها في أحسن تقويم ، وبث فيها أسرارها ، وألهمها رشدها بكتابه الكريم وسنة نبيه الحبيب ، واختارها لحمل الأمانة التي أبت عنها السموات والأرض عجزاً ، وبذلك تغدو حكيمة في تصرفاتها ، بارعة في أفعالها ، سامية في أخلاقها ، وبخاصة إذا ما تنبهت أن النبي الكريم أبان عن حقيقة جلية بأكثر من مناسبة وبأكثر من بيان ، وهي أن الإدبار والنقصان هما العنوان البارز الذي أدرك هذه الدنيا وأنها بتراجع وتخلف مستمرين حيث قال ﷺ :

(**مَا مِنْ عَامٍ إلا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ حَتَّى تَلْقَوْا رَبَّكُمْ**) صحيح الجامع : ٥٧٣١/٢ .

فالمؤمن الكيِّس الفَطِن يضع هذه الحقائق بمجموعها نُصْبَ عينيه أثناء كل عمل دون إضاعةٍ لأي جهد أو وقت ، فالبشير المعلم أوصانا وصية عميقة غالية لو تنبهنا إليها لنكونن من الفائزين حين قال : (**إنْ قَامَتِ السَّاعَةُ وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيلَةٌ فَإِنِ اسْتَطَاعَ أَنْ لا يَقُومَ حَتَّى يَغْرِسَهَا فَلْيَفْعَلْ**) رواه الإمام أحمد .

ألا ما أعظم هذا الدين في إيجابياته وواقعية منهجه الرباني الخالد .

ألا ما أعظم هذا الدين في تعاليمه وإرشاداته وتوجيهاته التي تحث على البناء والإعمار وفعل الخيرات في رجاء ممدود لا ينقطع .

عنوان المقال : بين حقائق الكون والنفس .. والاستماع المسؤول	الكاتب :الأستاذ ماجد رسلان

ألا ما أعظم هذا الدين في أوامره ونواهيه ، حيث لا يطلب من أتباعه إلا بذل الجهد الطيب ، والإخلاص المحض في عمل جاد موزون مدروس .. وإن الإنسان ليس مسؤولاً عن أي نتيجة ما طالما أنه كان متقناً لأي عمل مبذول أياً كان صغيراً أم كبيراً ، لأنه يدخل في باب العبادة التي لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا وتقرب صاحبها إلى الله زُلفى ، وأن عليه فقط بَذل الجهد ووسع الطاقة ، وعلى ربه وحده التكلان والاعتماد ..

الهوامش :

(١) - زهرة الدنيا : بهجتها ونضارتها وحسنها ..

- الرُّحَضاء : العرق الكثير يَرْحَض الجلد أي يغسله .

- الربيع : الماء الذي جعله الله سبب الإنبات .

- الحَبَط : انتفاح البطن من كثرة الأكل .

- يُلم : يقرب من القتل والهلاك .

- الخُضْر : نوع من الكلأ يعجب الماشية ويكثر في الربيع .

- خاصرتاها : جانب البطن من الحيوان .

- تَلَطتْ : ألقت ما في بطنها رقيقاً . أي إذا شبعت وثقل عليها ما أكلت تحيلت في دفعه بأن تجترّه ، ثم تستقبل عين الشمس فتحمى بها فيسهل خروجه ، فإذا خرج زال الانتفاخ ، فسلمت ، وإن لم تفعل فإن الانتفاخ يقتلها سريعاً أو تدنو من الهلاك